10

الجزائر... انصراف!

"مَن؟.. نحن؟! - نعم! أنتم!"

بعد أن وقع كثير من أصدقائنا تحت وابل الرصاص وطعنات السكاكين، وقعت أنا من جديد على حقائبي، حقائبي الملعونة التي ظننت أنها ستبقى حيث هي مهملة في مكان ما. وداعًا بيت الجزائر! وداعًا مساندي الجميلة، شقتي الهانئة، وداعًا للجدران والنوافذ والسرائر والسجاد، وداعًا لكل ما أودعناه حبنا، لكل ركن شهد على هذا الحب وخبّر عنه.

صحبتنا أمي وموكب من الأصدقاء إلى المطار، كانت تبكي ومعها الكل يبكي ونحن نغادر إلى تونس منتصف تموز عام 1993. تونس الدافئة والحارقة والمزعجة.

ها نحن مجبرون على رحيل جديد، طرد آخر يلاحقنا، هربٌ لا ندرك خلفياته تمامًا. نعاني الحرّ والانتظار والحلم بالعودة وتأتينا أخبار الجزائر ودائمًا سيئة! اغتيالات، مجازر، قنابل، مذابح. أعود لسماع الأخبار، عود على بدء وبير سبع ثان. كنت أعرف هذا فقد سبق ومرّ بي. لولا مأساة الوضع لضحكت من سخرية القدر. بيد أن كنزي لم يكن يضحك وكان يتألم. إنها مرّته الأولى، لا يعني هذا أن المرة الثانية أقل وطأة ووجعا لكننا نتعلم مع الزمن السقوط على نحو أفضل، التخفيف من وقع السقطة، الاستناد على شيء ما، الذراع مثلًا، قوتنا أو حكمتنا. هذا على الأقل ما كنت اعتقده. كان كنز حياتي يتوجع وفي بعض اللحظات بات وكأنه أمي، وأمام آلامه كنت أنمحي، وأولادي كانوا صامتين وضائعين.

كنا نحترق من الحر تحت سقف منزل صديقتنا التي هبت لمساعدتنا. نهى سفيرة مبعدة وامرأة يائسة آوتنا عدة أشهر. عرفنا حياتها كفلسطينية ومراحلها المصرية واللبنانية والجزائرية والتونسية والمالطية، وكم سافرت ولفت على سفينة الثورة لا سيما "ثورة" رجل الكوفية حيث كانت من طاقم المقربين له. لن أسرد حياتها فسيكون هذا طويلًا، لعلي أتوقف فقط عند المرحلة التي عايشناها بعد عودتها من مالطة حين كانت سفيرة الثورة.

نهى سفيرة؟! هذا يعني تمامًا عدم معرفة من هي نهى وما هي الثورة. نهى شخصية غير شكل، ذكية، طريفة وظريفة، مواصفات لا تتلاءم مع الثورة! هما يشكلان معًا زوجًا متنافرًا. صديقتنا كانت تمص البونبون

ليل نهار وتحب المشي حافية في السفارة وتحدّق بجرأة بالرجال الذين يسترقون نظرات شهوانية إلى أعلى نهديها. فجأة تنفجر بالضحك وبغتة ينحرف مزاجها فيثور غضبها في ثوان. هل يمكن تخيلها سفيرة؟! كم تهنّى معاونوها وسعدوا وهم يفضّلون لزعيم الثورة كل "انجازاتها" وأفعالها، إلى أن انتهى به الأمر إلى الثورة عليها وتجريدها من كل مسؤولياتها. نهى تعشق الفساتين الملونة الصفراء والحمراء والبنفسجية والمزهرة، تميل لكل الأشكال والألوان. اختارت لمكان اقامتها في السفارة أريكة من الجلد البيج وأرادت دفع ثمنها من ميزانية السفارة. كانت تطالب بآلاف الدولارات ولا تكلّ عن المطالبة بكل الوسائل وتقول أنها لتأسيس مركز للدراسات الفلسطينية، كان هذا هدفها الأولي بالفعل، ثمّ بعد أن حصلت على المال نتيجة إلحاحها، وضعت المشروع وتعقيداته على الرف وغفلت عنه. المبلغ صُرف، بدون أي نية سيئة، لشراء الملابس وتأثيث مقر السفير. يا لنهى المسكينة! لقد فُصلت من أجل أثواب ملونة وأريكة جلدية بيج، مع أنها أرادت فقط تمثيل الثورة على نحو مشرّف. لمَ على هذه الثورة أن تدان دوما وتُمثّل بأسمال بالية أو بصور محاربين شاهرين أسلحتهم؟ لكن، يا عزيزتي نهى، ألا تعلمين أن الثورة أمرٌ جديٌّ؟

الناس الذين بقوا في أمكنتهم، هؤلاء الذين لا يغادرون إلا للعطل –وإن غادروا فليس إلا ليرجعوا– هؤلاء، لا يدركون ما يجري في حياة أولئك الذي يغادرون حقًا لغير رجعة ويعيشون في دوامة الرحيل المتكرر ويحملون

معهم تضاريس أمكنتهم الأصلية. الناس الذين يبقون يروون لك قصصًا عن عُليّات جداتهم ومزارع آبائهم القريبة، رحلاتهم الخاطفة إلى جزر الأنتيل، ثمّ يتحفظون -أدبًا- عن سؤالك عن حياتك الغريبة وطرقاتك المتقطعة التي عبرتها في أسفارك. أدبهم هذا ينتهي بأن يثير غيظك. حين تجتمعون على طاولة واحدة، تشعر بعد برهة برغبة ملحة بالفرار. يتملكك ضجر عميق وأنت تسمع أحاديثهم أمام صحن الحلوى عن أشجار حدائقهم التي تنمو وتزهر. الأشجار تحتاج تربة ومكان وزمان لتنمو. ونحن، كما يظنون في قرارة أنفسهم، لا أرض لنا ولا مكان، أما الزمان زماننا فهو متعرج وغير معروف رأسه من أساسه. حين تسمع أحاديث من هذا النوع، تسأم من المتشدقين بها وإن كنت تجدهم وديين ومتفهمين ومنفحتين. حياتهم تبدو لك مسطّحة ومملة بالتأكيد، لكنك مع هذا قد تشعر بغيرة ما من هذا الملل وتدرك آنذاك أن أمورك ليست على ما يرام وأنك أنت غير المحتمل مع ماضيك المستحيل. وإن مرت قضيتك أحيانًا في نشرة الأخبار المسائية -التي لا تظهرُ فيها حتى، فما أهميتك إذًا للآخرين؟!- فهم بعد لحظات من الاهتمام سيشعرون بالضجر وستزعجهم باضطراباتك المصيرية. ومع هذا، حين يبثّ التلفزيون صورة لبير السبع أو صورًا من غزة المدمرة فأنت على أية حال خارجها ولم تعد جزءًا منها ولا أحد يلحظ هذا الرابط بينكما. حتى أنت لا ترى هذا الرابط، وتتساءل إن كنت جزءًا من تلك المدينة الحديثة الغنية المزدهرة التي تتنزه فيها حاليًا، أم من هذه الصحراء التي تظهر على الشاشة لدقيقة وثلاثين ثانية؟ كل هذا يبدو غير حقيقيًا،

أن يكون هذا البلد المغبر المليء بالحجارة وبمنازل مهدمة الأسطح هو بلدي، وهؤلاء الناس الذين نشاهدهم هم ناسي، وأولئك الصبية الذين يرمون الحجارة على الدبابات -يا للأوغاد!-، لمَ لا يذهبون عوضًا عن هذا لمراكز الترفيه المخصصة للصغار أمثالهم (في البلدان المتقدمة)؟ أما هؤلاء الملتحون المدمنون على البؤس وكأنهم خارجون لتوهم من فيلم "اسم الوردة"(*) فيمكننا الظن أنهم يمضون يومهم وهم يفقّسون مؤامرات متتالية ضد العالم المتحضر. وماذا عن الأغنياء المتشبهين ببرجوازيي العالم المتقدم، هل مازالوا موجودين؟ كم يبدون على انقطاع مع محيطهم بدولارتهم وسياراتهم المرسيدس التي تعبر شوارع محفّرة، وبناتهم اللواتي يتزوجن في فنادق الهيلتون أو الشيراتون. هل كل هؤلاء ناسي؟ هل أنا منهم؟ لست سوى برجوازية صغيرة حسنة الهندام على الموضة، برجوازية صغيرة تعيش في الغرب وتسمى لاجئة. نعم لاجئة!(**).

مهما كان الأمر، عليكِ الاستمرار بالعيش دون أن تحاولي الفهم. تمارسين حياتك المعتادة وتقومين بأعمال البيت اليومية، ويفضّل فعل هذا بقدر من البهجة إن كان ممكنًا، تشترين الفريز أثناء التسوق، وتبدين إعجابك بالزبدة المحلية المملّحة، وتذهبين للاستهلاك في سوق المدينة المعروف، وتشاركين في اجتماعات. مجلس البناية، وتستمعين لأطفالك

(*) فيلم فرنسي لجان جاك أنو حققه عام 1986 عن اختفاء رهبان في دير عام 1327 وهي الفترة التي شهدت نقاش الكنيسة حول سلطتها ودورها. (المترجمة)
(**) بالانكليزية في النصّ. (المترجمة)

وللموسيقى أكثر وللأخبار أقل. كما يمكنكِ كي لا تصابي بالاكتئاب، أن تمارسي رياضة الركض مثلك مثل ملايين الرجال والنساء هنا. وأيضًا لن تنسي أبدًا الاعتقاد بأن الصباحات دائمًا جميلة ومحملّة بالأمل.

بات النقب بعيدًا وغدا خلفي الآن. الجزائر البيضاء ضبابية وغزة غبارية ونانت لمّاعة. والملل معقّم. مع هذا، تدور الحياة دورتها بلا غموض ولا زخرفة ولا إثارة، وإن بدت بعض جوانبها جميلة أحيانًا. جميلة بل تصبح فجأة هكذا حين يهلّ عمل أو مال، حين أتمتع بنزهة وتأتيني أخبار صديق وينال أولادي علامات جيدة وأحصل على قبلاتهم. أشياء بسيطة فيها عزاء وجمال وتجعل من الحياة حلوة، يكفي فقط الإيمان بها والأفضل إجبار النفس على الإيمان بها.

مشهد بير سبع ينأى. واحد، اثنان، ثلاثة. ها قد اختفى في أفق من غبار. إنه سجل اختفاء أو اختفاء مسجل كما تحلو لنا تسميته، لكنه مفبرك ومطواع بالتأكيد. قد يعاود المشهد ظهوره في أي لحظة لكني سأحاول احتوائه آنذاك ووضعه تحت "السيطرة". هذا يعتمد على الحدث وأنا لا أحب الأحداث مع توقعي لهجماتها المتتابعة عليّ، أعرف أنها لن تدعني وشأني أبدًا ومعركتي ضدها ستكون طويلة. أدري هذا لكن، يجب علي أن أقودها وإن كان في أعماقي صوت صغير يهمس بأنها معركة خاسرة من البداية. هل هو على حق هذه المرة؟ هذا ما سيقرره التاريخ.